مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 01 السنة: 2020
ص: 111 - 133 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تقاليد الدرس النحوي بمدرسة الشيخ محمد بلكبير

The Tradition of the Grammar Lesson in the School of Sheikh Mohammed Belkbir

بلحاج جلول *

Belhadj Djelloul

جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان ، الجزائر

University of Tlemcen – Algeria

.Djelloulogbi46@hotmail.com

تاريخ الإرسال:2019/05/17	تاريخ القبول: 2019/12/18	تاريخ النشر: 2020/03/15

مُلخّص البحث

الملخص: يهدف هذا المقال إلى الوقوف على جذور وامتداد تقاليد الدرس النحوي عموما بوطن الجزائر وخصوصا بمدرسة الشيخ محمد بلكبير بأدرار منذ 1950م تحديدا، حيث تُعتمد المقررات التي انتهى إليها تدريس النحو العربي، تماما كما يُعتمد الحفظ للنصوص قواعد ومسائل، مع التركيز على دور كل من الشيخ في التدريس، والطالب في التحصيل، وقيام الطلبة بأدوار تربوية كالمذاكرة، وتسهيل توصيل المعارف مراعاة لاختلاف المستويات، الذي تنتجها عامل الفروق الفردية. وإذا كان الحفظ أساس العملية التربوية، فالفهم هو القصد المنشود، والتطبيق والتوظيف هو الهدف التربوي الذي تقوم عليه كامل التجربة المعرفية التي ورثت عن جدارة الرصيدَ الهائل، لصالح وفي سبيل خدمة العربية مقدمة لخدمة النصوص الدينية من القرآن الكريم والحديث النبوي.

الكلمات المفتاحية: عربية، حفظ، نحو، مذاكرة، تحديث.

Abstract: This article aims to identify the roots and extension of the grammatical traditions in general in the homeland of Algeria, especially in the school of Sheikh Mohammed Belkbir in Adrar since 1950, where the decisions adopted by the teaching of Arabic grammar are adopted, and the preservation of the texts depends on rules and issues, teaching, and student achievement, and the role of students in educational roles such as memory, and facilitate the transfer of knowledge in view of the different levels, produced by individual differences. If the conservation basis of the educational process, understanding is the intended purpose, application and

* بلحاج جلول.Djelloulogbi46@hotmail.com

employment is the educational goal on which the entire experience of knowledge inherited from the merit of the huge balance in favor and in the service of Arabic introduction to the service of religious texts of the holy Quran and Hadith.
Keywords: Arabic, save, about, study, update.

مقدمة:

تشير الكتابات الجزائرية التي تؤرخ للحركة الثقافية، وطرائق تدريس العلوم إلى قدم البدايات الأولى للدروس العلمية ومناهجها عموما، وفي علوم العربية خصوصا، وبصفة أكثر تحديدا ما يتعلق بالنحو العربي قواعده وشواهده. وبإمكان المطالع وهو ما سأمثل له لاحقا، أن يقف زيادة على حلقات التحصيل للطلبة الجزائريين داخل وخارج الوطن، وحلقات التدريس للمشايخ كذلك، أقول يقف على تآليف مبكرة، حازت قبولا عاما في فترات لاحقة وفي أماكن ومعاهد علمية معروفة في المشرق والمغرب. وقد قامت هذه الحركة على مجموعة أمور نختصر الإشارة إليها في المقررات النحوية، ومناهج تدريسها، والأعمال العلمية التي قامت على محتوياتها، مع الإشارة إلى كون هذا المسلك في المعالجة العلمية للموضوعات النحوية، ظل سائدا ومستمرا بل ومستقرا في كامل العالم الإسلامي، وحظي بتجانس وتقارب شديدين نتيجة التلاقح المستمر الذي أنتجته الرحلة العلمية، والتواصل الثقافي المتبادل. والذي يهم الباحث هنا هو الإشارة إلى الطرق العلمية في التدريس، والتي لا تزال بقاياها شاهدة ومستمرة، ومن شأن إخضاعها لعمليات تقييم معرفي، أن يمكن من تسجيل مدى نجاعتها في التحصيل العلمي، وما هي النقائص التي شابتها فتكون بالتالي قد أدت إلى التبكير بمحاولات تجاوزها، واستبدال غيرها بها، مما نعرفه من الطرق الحديثة التي توصف بالأكاديمية.

ولما كنت ممن وقف على ذلك مباشرة وعن كثب بالمدرسة المشار إليها في العنوان، والتي سيتم التعريف بها لاحقا، فإني أجمع بين الشهادة على طبيعتها وتفاصيلها، وبين الاستدلال عليها بغير ذلك من الدراسات والتحليلات للطرائق المشابهة؛ إذ كان ذلك معروفا ولا يزال يتخرج على طريقته أعداد كبيرة بالوطن وبغيره كمحاضر مدرسة الشيخ بلكبير، والمحاضر الموريطانية تحديدا.

أولا – تحديد المفاهيم.

01 – التعريف بالشيخ محمد بالكبير وبمدرسته: تأخرت المحاولات الأولى للكتابة عن حياة الشيخ محمد بلكبير الاجتماعية والعلمية، وغالب ما هو متداول وإلى عهد قريب تراث شفهي يتناقله الطلبة فيه إشارات متناثرة إلى معلومات أولية عن المسيرة العلمية، وقد صدرت بعض الكتب والكتابات بل والرسائل العلمية حديثا تتعرض لمقادير من ذلك لا تتعدى في جانبها التأريخي ما هو متداول باستمرار. وسأشير إلى بعض ذلك في محلّه من هذا المقال. ولد محمد بن محمد عبد الله بالكبير[1]، وفي بعض العناوين بن الكبير عام 1330هـ/1911م بقرية **بُودة** القريبة من مقر الولاية أدرار، أتم حفظ القرآن وتلقي الدروس الأولية وهو ما كان متاحا يوما من المعارف الشرعية على مشايخ القرية، وفي أثناء إقامة العائلة بتمنطيط بنفس الولاية درس ثلاث سنوات على شيخها سيدي أحمد بن ديدي. ومواد هذه الدراسة كانت أساسا العقيدة، وبعض متون الفقه المالكي، ومقررات النحو، وسرد الأحاديث والتفسير، والتصوف.

وبعد زيارته لتلمسان والمغرب الأقصى استقر بقرية **لعْريشة** نواحي تلمسان، ثم بالمشرية بولاية النعامة حاليا، تأهل اجتماعيا واشتغل بتدريس القرآن وغيره من الدروس الشرعية، وعاد أخيرا إلى **تيميمون** يدرس بمدرستها، ليستقر أخيرا بالمدرسة المعروفة ببلدية أدرار مقرّ الولاية، واشتغل في التدريس إلى أن غلبه المرض وتوفي 1421هـ/ 2000م[2]. تخرج من مدرسته الآلاف من الطلبة منهم طلبة أفارقة وعرب وغيرهم كثير...

02 – التعريف بالدرس النحوي وطريقة تدريس علوم العربية: أمهد للدرس النحوي المشار إليه في عنوان المقال، بعرض نصوص توثق لجذور هذا النشاط العلمي وامتداده، ههنا بالجزائر خصوصا، وأجمع بين الإشارة إلى نشاط الطلبة في التحصيل وجهد المشايخ في التدريس، وما وجد أو سجّل من التآليف العلمية خصوصا والتي تناولت المقررات النحوية متعرضا للتعريف بها، إذ كانت مقدمة للحفظ والتدريس بالشرح والتعليق بالمدرسة المذكورة.

تشير المصادر إلى بعض الشخصيات تحديدا التي عرفت مبكرا بتحصيل النحو وتدريسه، ومع أن صعوبات التأريخ لبلد كالمغرب الأقصى في البدايات الأولى للفتح الإسلامي تقوم عائقا بخصوص ذلك نظرا لتأخر الفتح المذكور، وكون المغرب كان مصطلحا عاما لكافة أقطاره قرونا عديدة، وتأخر ظهور مصطلح المغرب الأوسط نسبيا كما عند ابن خلدون مثلا، ومصطلح الجزائر عنوانا للكيان السياسي المتعارف عليه بدلية من القرن العاشر كما يشير سعد الله أعقاب مجيء

الأتراك وقيام سلطتهم بالمغرب الأوسط يومها. والملاحظ أن بعض التحديدات كالتاهرتي والتلمساني، والبجائي...كثيرا ما تنجح في فرز تراجم جزائرية من سياقها المغربي، وبالتالي نجد شخصية مثل" يهوذا بن قريش التاهرتي: لغوي من أهل تاهرت، كان متضلعا من اللغات العربية والعبرية والأرامية والبربرية والفارسية، وحاول المقارنة بين بعضها، وله في ذلك كتاب، توجد مخطوطته في مكتبه "أوكسفورد"، وهو بذلك واضع أساس النحو التنظيري."[3]، والعبارة الأخيرة للأستاذ عادل نويهض.

وممن تأهل لتدريس النحو السنين الطويلة وفي الأماكن المتعددة " الحسن بن علي التاهرتي (501هـ/1107م)، سكن سبتة ودرس النحو بها الى حين وفاته."[4]، ومعلوم أن ذلك كان في عصور الأمهات النحوية ككتاب سيبويه، وأصول النحو للزجاج، وكتب ابن جني...ولم تكن المختصرات قد ظهرت بعد، وهذا يستدعي الرحلة إلى المشرق حيث تراث مدارس الكوفة والبصرة...

وفي القرن السابع ظهر محمد بن عبد الله الزناتي (680هـ/1281م) قال أبو حيان:" كان شيخ أهل الاسكندرية في النحو، تخرج به أهلها، ولا أعلمه صنف شيئا. وقال الكتبي في فوات الوفيات: " وكان يحفظ الإيضاح للفارسي، ويقرىء بداره."[5]. وهي عبارة دقيقة على إيجازها تشير إلى ما ذكرناه من الإلمام بأصول النحو، وقيام الدرس النحوي على الأمهات والمصادر الأولى أسوة بما كان بالمشرق. ويشير آخر النص المذكور إلى جهد العلماء في التدريس، وتحملهم تبعات ذلك على حسابهم خاص، وكثيرا ما كان ذلك رافدا في التدريس خصوصا زمن قيام الأزمات السياسية والإختلالات الاقتصادية؛ فلا ينقطع بذلك التحصيل ولا التدريس.

وممن يذكر على سبيل التمثيل لا الحصر، ونحن نتجاوز الفترات الزمنية، أحمد بن عبد الرحمان الخلوف (899هـ/1494م)، ورد في ترجمته ما يدل على مكانته في الدرس النحوي وتصدره فيه، ألف جامع الأقوال في صيغ الأفعال، وهي أرجوزة في تصريف الأسماء والأفعال، كما " نظم المغني لابن هشام في النحو"[6]. وابن هشام الأنصاري وكتابه المغني مشهوران دار عليهما جهد الطلبة والمدرسين والمؤلفين في القرون التالية. وقد نقل عن ابن خلدون كما في الدرر الكامنة، قوله: " ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية، يقال له: ابن هشام، أنْحَى من سيبويه.".[7].

وأشير هنا إلى أنه وفي هذه الفترات أعقاب القرن الخامس بدأ يقل الاعتماد المباشر على كتب الأمهات والمصادر النحوية، نظرا لاتساع الفنون العلمية، بل اتساع دائرة الفن الواحد، وما شاع من تقصير أمد الرحلة إلى الأشياخ؛ نظرا لاتساع العمران ووفرة المدارس، حتى كان الآبلي يرى ذلك من أسباب ضعف العلم والتعليم."[8].

وأضيف أيضا غياب الشخصية الموسوعية التي كان النحو أحد مكوناتها، وما أعقبها من عنصر التخصص في شخصية العالم، حتى كان مثل ابن معطي الزواوي وابن آجروم مثلا ممن عرفوا بالتخصص في النحو لا ينسبون إلى غيره مع احتمال القدرة على المشاركة في سائر فنون الإسلام والعربية. كما ظهر ابن مالك وابن هشام بالمشرق. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك الصنيع مع بيان الغرض منه فقال: " ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطّرق والأنحاء في العلوم يولعون بها، ويدوّنون منها برنامجا مختصرا في كلّ علم يشتمل على حصر مسائله وأدلّتها باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنّ. وصار ذلك مخلّا بالبلاغة وعسِرا على الفهم. وربّما عمدوا إلى الكتب الأمّهات المطوّلة في الفنون للتّفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ."[9]. وليس ذلك خاصا بالنحو بل فيه وفي غيره.

حتى إذا انتهى الحال إلى زمن الأنظام العلمية، والمختصرات النحوية، يطالعنا ذكر عبد الله بن يوسف الحسناوي، فقد أخذ عن السخاوي الألفية بالقاهرة كما هو مزبور في كتاب الضوء اللامع للسخاوي نفسه[10]، وكان قد مضى على الألفية المذكورة قرنان من السنين الهجرية.

والغرض الإشارة إلى من تخصصوا في النحو حتى عرفوا به مع ما كانوا يلمون به من سائر الفنون، وإلا فإن النحو وتوابعه كان مادة مقررة، لا يستغني عنه دراس ولا مدرس، ولا تُعفى المدارس مهما صغرت من العناية به. وقد أشار سعد الله إلى ذلك بعبارة عامة " وقد ظل النحو موضع اهتمام بعض العلماء..."[11]. والبعضية المشار إليها هنا نسبية تكون في التدريس، أو في التأليف، أو بمنح الإجازة للطلبة والأقران. بل إن الفاضل المذكور نسب الاهتمام بالنحو إلى مدارس بكاملها عمرت سنين طويلة ربما جاوزت القرن كاشتهار مدرسة **الخنْقة** ومدارس زواوة بالنحو والفقه[12]، وذلك في فترات متأخرة تقدمت نكبة الاحتلال الفرنسي.

ونختم الإشارة بالتمثيل إلى من تولوا تدريس النحو بالموهوب بن محمد بن علي الزواوي، درس هذا الفاضل شرح المكودي لألفية ابن عقيل، وهو كتاب مشهور يتناسب ومستوى الطبقات

المتوسطة والعليا يومها، وربما كان الاعتماد عليه لعدم توفر شروح أخرى لدى هذا المدرس أو غيره.[13].

وأدى هجر العربية السليمة في الاستعمال اليومي وشيوع العامية إلى حصارها في المدارس، والكتب المقررة إضافة إلى الخطب الدينية، ولهذا نجد كثيرا من المتأخرين لا تسلم دروسهم من اللحن وقد ذكر أن الدروس العلمية لأبي راس الناصري المعسكري كثيرا ما كانت تشتمل على اللحن المشار إليه مع علمه وموسوعيته، وليس ذلك إلا لما ذكرنا من حصول الخلل في اللسان لا عدم الإلمام بالقواعد. وقد يكون في ذلك مبالغة إلا أن شيئا من ذلك لا يستبعد عنده وعند غيره.[14].

وهذا وغيره من طبيعة الكتب المقررة والتآليف المذكورة في كتب التراجم زيادة على غياب ما كان معروفا قبل الاحتلال الفرنسي...يفسر الانحدار الخطير الذي شهده الدرس النحو في عموم متعلقاته من جهة المناهج والبرامج ومستوى الطلبة والشيوخ، وقلة المدارس وضعف التحصيل عموما، وانحصار الرحلة من جهة العدد، ومن جهة المراكز العلمية كالزيتونة والأزهر، والقرويين وبعض المدارس والزوايا المحلية. وهو ما سيفسر لنا لاحقا طبيعة ما كان سائدا بمدرسة الشيخ محمد بلكبير فيما يخص الدرس النحوي سواء تعلق الأمر بالمنهج التقليدي المتبع في التحصيل والتدريس أو الاقتصار على المقررات الموروثة والمحدودة عموما، مع ملاحظة دائرة التطبيق وهو ما سنشير إليه لاحقا.

وأختم هذا العنصر بما آل إليه الدرس النحوي بالمعاهد العلمية والجامعات من التخصص في هذا الفن وربطه بأحدث النظريات، وتوجيه الطلبة بعد التحصيل المقرر في السنوات الدراسية إلى الاشتغال بالأبحاث العلمية التي تؤرخ للتراث، وتشارك في التوجهات النحوية المعاصرة بما يربط ذلك بنظرية اللغة عموما. وفي ذلك جهود طيبة من شأن نشرها والعناية بها إثراء هذا الفن الأصيل والداعم الكبير للعربية كأحد مقومات الشخصية الوطنية.

ثانيا – المقررات العلمية وشروحها:

01 – الأجرومية وشروحها:

أ– التعريف بابن آجروم: محمد بن آجرّوم الفاسي، تخصص في النحو، والقراءات، وله مشاركة في الفرائض والحساب والأدب. من كتبه المقدمة الأجرومية في النحو..."[15].

ب– التعريف بالأجرومية: أما الآجرومية نسبة إلى مؤلفها ابن آجروم أو الأجرومية بدون مدّ كذلك أو المقدمة الأجرومية فهي تسميات للرسالة الوجيزة في الأساسيات النحوية التي تقع إليها الحاجة من صغار الطلبة خصوصا والمثقف العادي. والأجرومية معروفة ومتداولة، وهذا النص يشير إلى بدايتها وخاتمتها: " أنواع الكلام. الكلامُ: هو اللفظُ المرَكَّبُ المفيدُ بالوَضْع. وأقسامُه ثلاثة: اِسمٌ، وفعلٌ، وحَرفٌ جاءَ لمعنى... وأما ما يُخفَضُ بالإضافة , فنحو قولك: "غلامُ زيدٍ" وهو على قسمين: ما يُقَدَّرُ باللام، وما يُقَدَّرُ بِمِن، فالذي يُقَدَّرُ باللام، نحو: "غلامُ زيدٍ" والذي يُقَدَّرُ بِمِن، نحو: "ثَوبُ خَزٍّ" و"بابُ ساجٍ" و"خاتَمُ حديدٍ". تم بحمد الله."[16].

وتعود أهمية المقدمة الأجرومية إلى أمور كثيرة منها: اختصارها وكونها مقدمة إلى صغار الحفظة عكس المطولات، وإمكان حفظها، وأنها تضمنت القواعد الأساسية، تصلح مقررا مركزا للحفظ والشرح والنسخ والفهم، والتداول بين الطلبة. ويسهل على المشايخ شرحها في إيجاز، وبالتالي وتوفير مادة مكتبية للطلبة في الأمكنة التي تقل بها الكتب وحرفة نسخ الكتاب، ومن جهة ثالثة يعود انتشارها إلى الأمثلة المقدمة نماذج للقاعدة المسطرة. وقد تخلى فيها المؤلف عن الخلاف الشائع في غيرها من الكتب النحوية...مع حسن التقسيم والتحديد.

تناول المشايخ منذ فترة مبكرة المقدمة الأجرومية ولعل ذلك كان في حياة صاحبها لشدة الحاجة إليها، قلت تناولوها بالحفظ والشرح والتعليق، في كامل ربوع المغرب العربي وغيره كما تفيده كتب التراجم المختلفة على ما نشير إليه في محله. وأخص بالذكر من جهة التأليف علماء جزائريين منهم أحمد البجائي أبو عصيدة: " نسب إليه شرح قصير على الأجرومية توجد منه نسخة في مكتبة جامعة برستون الأمريكية (قسم يهودا) رقم 2649 مجموع."[17]. كما شرح عبد الكريم الفكون شواهد الشريف على الأجرومية[18]، وألف أيضا محمد الصباغ القلعي: الدرة الصباغية في شرح الجرومية[19]، وأختم بالشيخ أحمد الطيب بن محمد الصالح الزواوي فله شرح على الآجرومية، بعنوان مفيد الطلبة."[20]، كما نظم الشيخ خليفة بن حسن الأجرومية[21].

وهكذا ترسخت مكانة المقدمة الأجرومية بفضل الاهتمام المتزايد للمشايخ والطلبة بها، ووقع تقريرها بالمدارس العلمية المختلفة في كامل ربوع البلاد الطلبة بالحفظ، والمشايخ بالتدريس والتأليف، واعتبروها ملح الطعام. وأما الشيخ محمد بلكبير فكان اهتمامه بها بالغا يعرض عليه

الطلبة في اليوم المخصص للنحو مقادير منها فيقوم بالتعليق عليها بإيجاز آخذا في الاعتبار الطلبة الجدد ممن لم تسبق لهم مطالعتها.

وزيادة على هذا فإن حفظها يكون بالقسم القرآني بالمدرسة " **المَحْضرة** " حيث يجعلها الطلبة آخر المقدار المكتوب على اللوح من القرآن الكريم، وربما أفرد لها بعض الطلبة لوحة خاصة، ويعرض المحفوظ من الأجرومية مثلا على شيخ المحضرة وهو أحد كبار تلامذة الشيخ بلكبير، ويوم الأربعاء مساء من كل أسبوع هو يوم تكرار لجميع المتون الصغيرة بما فيها الأجرومية عن ظهر قلب لا ينظرون في ذلك إلى كتاب إلا قليلا. وأشير هنا إلى أن الكتاب لم يكن متوفرا إلا لآحاد الطلبة المعدودين، وإنما الإعتماد على الاستظهار والحفظ.

وهكذا تختم الأجرومية حفظا وشرحا آلاف المرات طوال حياته العلمية بالمدرسة لصغار الطلبة وكبارهم. ولا يزال الاهتمام بالأجرومية كبيرا رغم وجود مقررات الدراسة الأكاديمية، وتوفر كتب النحو والتطبيقات في البرامج النحوية في المواقع الإلكترونية والهواتف....

02 – ملحة الإعراب وشروحها.

أ– التعريف بالحريري مؤلف ملحة الإعراب: القاسم بن علي الحريري، من كبار الأدباء والنحويين بالبصرة من آثاره: المقامات، ودرة الغوّاص في أوهام الخواص، منظومة مُلحة الاعراب في النحو وشرحها، (516هـ/1122م)[22].

ب– التعريف بملحة الإعراب: نظم الحريري من خلال تأليفه بعض أهم قواعد العربية بأسلوب واضح وطريف وضرب لذلك أمثلة جيدة رائقة وراقية، وقد نالت الملحة بذلك سمعة طيبة، ووقع تداولها مبكرا وشاع حفظ الطلبة لها، ودروس المشايخ فيها، وشروح المؤلفين عليها. ونظرا لقيمتها وسمعة صاحبها فقد فاقت غيرها مما هو في مستواها كمنظومة الشبراوي مثلا...أشير إلى بدايتها في بَاب تَعْرِيف الْكَلَام.

حدُّ الكَلامِ مَا أفادَ المستَمِعْ ○○○ نحوُ سَعَى زَيدٌ وعَمروٌ مُتَّبِعْ

ونَوعُـــــهُ الَّذِي عليهِ يُبنَى ○○○ اسمٌ وفِعلٌ ثمَّ حرفُ مَعــنَى

وآخرها:

فَانظُرْ إِلَيْهَا نَظَرَ المستَحسِنِ ○○○ وأحسِنِ الظَّـــنَّ بهَا وحَسِّنِ

وإِنْ تَجِدْ عَيبًا فَسُدَّ الخَـــلَلا ○○○ فَجَلَّ مَنْ لَا فيهِ عَيبٌ وَعَلا

والحمدُ لله عـــلى مَا أوْلَى ○○○ فَنِعمَ مَا أوْلَى وَنِعمَ المِــولَى
ثُمَّ الصَّلاةُ بعدَ حَمدِ الصَّمَدِ ○○○ على النَّبيِّ المصـطَفَى مُحمَّدِ
وَآله أهْـــلِ التُّقَى والرَّشَـدِ ○○○ وَصَحْبِهِ قُدْوةُ كُـلِّ مُقــتَدي
ثُمَّ على أصحَـــابِهِ وعِترَتِهْ ○○○ وتَابِــعِي مَقَـــــالِهِ وسُنَّتِهْ.

وليس بين أيدينا الآن من شروحها غير عمل أبي القاسم البزاغتي، فقد ذكر أبو القاسم الحفناوي أن له شرحا على ملحة الإعراب للحريري.[23]. وتبرير ذلك واضح فإن أهل المغرب عموما كما قال ابن خلدون لا اعتناء لهم بالتأريخ لأنفسهم، وتنسحب هذه الظاهرة على قلة التآليف عموما نسبة إلى غيرهم. وغالب جهدهم في الحفظ والتدريس. وقد رأيت الشيخ محمد بلكبير رحمه الله شرحها بالتدريس مئات المرات دون أن يكتب عنها هو ولا مشايخه ما يمكن أن يورث عنهم كتأليف، مع قدرته هو رحمه الله ومشايخه على ذلك وقيامهم عليه أتم قيام.

03 – ألفية ابن مالك وشرحها:

أ– التعريف بابن مالك: محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي من أهل جيّان بلدة بها، أحد الأئمة في علوم العربية. عاش ابن مالك وتوفي بدمشق (672هـ /1274م). من أشهر أعماله الألفية في النحو مشهورة في المدارس قديما وحديثا، وله تسهيل الفوائد في النحو وشرحه، والكافية الشافية أرجوزة في نحو ثلاثة آلاف بيت وشرحها أيضا، وله ولامية الأفعال في الصرف وكلها مطبوع، وغير ذلك.[24].

ب– التعريف بالألفية: الألفية مأخوذة من اسمها وهي نظم رائق في النحو أحصى المهم من قواعد العربية، وقد اختصرها ابن مالك من نظمه الكافية الشافية وهي في ثلاثة آلاف بيت. كما يدل عليه آخر الألفية: أحصى من الكافية الخلاصة...ووقع اعتماد العلماء عليها شرقا وغربا من أيام مؤلفها رحمه الله، وكان قد غطى بها على ألفية ابن معطي الزواوي كما في قول ابن مالك الآتي: فائقة ألفية ابن معطي...وتداولها الطلبة في المدارس بالحفظ، والمشايخ بالتدريس والتأليف وهجرت لأجلها الأمهات والمصادر، وضمنها أبياتا كثيرة هي شواهد لقواعد مقررة في الألفية المذكورة. كتبت حولها شروح وحواش كثيرة وتعليقات مطولة، وكان نصيب الجزائريين منها جيدا نسبة إلى غيرهم.

وأذكر قبل سرد شروح الجزائريين أبيات من صدر الألفية وخاتمتها وهي:

قال محمد هو ابن مالك ○○○ أحمد ربي الله خـــــير مالك
مصلّيا على النبي المصطفى ○○○ وآله المستكمـــلين الشّرفا
وأستعين لله في ألفـــــيّه ○○○ مقاصد النّــحو بها محويّه
تقرّب الأقصى بلفظ موجز ○○○ وتبسط البذل بوعد منجز
وتقتضي رضا بغير سخط ○○○ فائقة ألفـــيّة ابن معطي
وخاتمتها:
وما بجمعهِ عُنِيتُ قد كمل ○○○ نظماً على جُلَّ المهمّات اشتمل
أحصى من الكافية الخلاصة ○○○ كما اقتضى غنىً بلا خصاصه
فأحـــــمد الله مصلياً على ○○○ محمَّدٍ خير نبيٍّ أُرســـــــلا
وآله الغرَّ الكـــــــرام البررة ○○○ وصحبه المنتخبين الخـــــيرة

أول ما يطالعنا من الأعمال العلمية حول الألفية ما ذكر من اختصار لابن مرزوق (842هـ/1438م) لها، وهو عمل يدل على حاسة نقد جيدة، اقتضت منه زيادة تلخيصها بما لا يخل بمقصودها، ولم يصلنا هذا العمل وإلا كان فيه ما يفي بالغرض لمقدرة ابن مرزوق العلمية[25]، ولابن فائد القسنطيني الزواوي اهتمام بالدراسات النحوية في منطقة زواوة بعد يحي بن معطي الزواوي صاحب الدرة الألفية في علم العربية، وقد ذكرت المصادر له شرحا على ألفية ابن مالك[26]، كما اثر عن محمد بن يحي العجيسي (871هـ/1467م) له شروح على الألفية كذلك.[27]. ومع حلول القرن العاشر اشتغل بركات بن باديس بأعمال نحوية منها شرح على ألفية ابن مالك في ثلاثة أجزاء، وآخر في شرح الشواهد للمكودي على الألفية أيضا[28].

وتشير المصادر إلى شرح والد الأخضري محمد بن عامر الأخضري البسكري وهو عمل علمي طويل[29]. وأما أبو راس الناصري فقد أهلته موسوعيته إلى حفظ وتدريس والتأليف على ما كان مقررا يومها من الأعمال العلمية النحوية، فكتب حاشية على المكودي."[30]. وعلى عمل المكودي وضع أبو حامد المشرفي تقاييد مفيدة[31].

وممن الظن أنه قد ختم به مجال التأليف حول الألفية وشروحها من الكتب العلمية محمد بن سليمان إدريسو (1298هـ/1881م) له شرح الألفية[32]. ومن المناسب أن أوضح هنا أن التأليف حول الألفية وغيرها كان يقوم أساسا على جملة أمور منها: أن الشروح المشهورة قد لا

تتيسر في بعض الأزمنة أو الأمكنة، أو أن مستوياتها كثيرا ما لا تتناسب وحاجات الطلبة. ومن جهة أخرى فإن المدرس قد لا يرى حاجة للطلبة في غير ما يدرسه لهم، وقد توارثوه عن مشايخهم فيقيدون ذلك ويتداولونه فيحل محل المعروف من المقررات المشرقية خصوصا. وهذا يظهر من الأعمال التي أنجزت حول شرح المكودي للألفية النحوية...

وقد كان الطلبة وإلى عهد قريب بمدرسة الشيخ محمد بلكبير قبل الثمانينات بالخصوص لا يتوفر لهم كتب ولا شروح كتب إلا القليل منهم، فيكتفون غالبا بما يسمعونه بمجلس درس الشيخ، ويحرصون على مراجعته وحفظه حرفيا ما أمكن، والمتيسر يومها شرح ابن عقيل والمكودي على الألفية، وشرح الكفراوي وخالد الأزهري على الأجرومية، ثم ظهرت الطباعة الحديثة بالجزائر فيسرت ما كان صعبا، وعمت الكتب والشروح النحوية وغيرها.

ثالثا – طريقة الدرس النحوي:

أتناول فيما يلي خصوص الطريقة التعليمية التي كانت سائدة بالمدرسة المذكورة فيما يتعلق بتدريس النحو، فأشير أولا إلى أن المقررات النحوية محددة في النهاية وأن الشيخ في البدايات الأولى لنشاطه العلمي ومنذ افتتاح مدرسته 1950م كان يضيف كتاب قطر الندى لابن هشام على ما علمت من بعض الطلبة، وأنه اقتصر آخرا على الأجرومية والملحة والألفية، وانتهى به الحال إلى حصر جهوده في شرح الأجرومية في بداية الحلقة العلمية ثم الألفية لا يزيد على ذلك. والسبب في تدريس النحو وغيره أن حلقة الشيخ في البدايات المشار إليها كانت تمتد من الفترة الصباحية إلى ما قبل الظهر، وهو ما يتسع لمواد ومقررات كثيرة، وكان أمد الطلب طويلا نسبيا، وبعد افتتاح المعاهد لتكوين الإطارات الدينية أصبح كثير من الطلبة يحرصون على السنوات المعدودة عند الشيخ قد لا تتجاوز ثلاث سنين. ونظرا لهذا لا تدوم الحلقة أكثر من ساعتين قبل الظهر بالمقرر المذكور.

وقد ظلت الطريقة المتبعة واحدة تتكون من مجموعة نشاطات بعضها للشيخ وأخرى للطلبة يطالعون فيما بينهم، ويطالعون لبعضهم، وهو ما سأشير إليه بالتوضيح:

01– المطالعة االتمهيدية: وهذه المطالعة تكون يوميا بين الطلبة قبل الحلقة العلمية للشيخ في الفترة الصباحية خصوصا بداية من التاسعة إلى حضور الشيخ، يتحلق الطلبة مجموعات محدودة، اثنين اثنين وربما اتسعت الحلقة إلى العشرات وهو قليل، يقصد الطلبة أنفسُهم بعضَ كبار تلامذة

الشيخ ليشرح لهم الدرس المقرر في حلقة الشيخ. وكثيرا ما لا يكون ذلك بتكليف من الشيخ بل يكفي إذنه أو علمه به. وأرجح أن يكون ذلك عملا طوعيا لا يحتاج فيه لإذن لكونه من ضرورات التعلم.

وعادة الطالب المختار أن يشرح من الكتاب المقرر على الأجرومية أو الألفية ويبالغ في الإيضاح والتفهيم، ويشرح الأمثلة، وربما أعطى أمثلة من عنده، ويستقبل أسئلة الطلبة ويجيب عنها وهو كثير، آخذا في الاعتبار الطلبة الجدد، والطلبة الذين يعسر عليهم الفهم من أول تقرير، والطلبة الذين ليس لهم كتب وشروح. وقد لا يستطيع كثير من الطلبة خصوصا المبتدئين منهم الفهم من كتب الأقدمين للاستطراد الموجود بها، وصعوبة العبارات الفنية الدقيقة...وهي طريقة الشيخ وكبار تلامذته أيضا في مراعاة الفروق الفردية بين طلبة المحاضر، وطلبة مجلس الشيخ، سواء في القدرة على الحفظ أو الفهم والاستيعاب. وواضح أن ذلك ضرورية تربوية لابد من مراعاتها كما تفيده الدراسات في علم النفس التربوي فبخصوص الحفظ تبعا لعامل صغر السن تحديدا، فإن " "التعلم عملية معقدة، تدخل فيها عمليات عقلية مختلفة، هذه العمليات تختلف في تعقيدها تبعًا للمستوى النفسي الذي تحدث فيه عملية التعلم، ولا شك في أن الحفظ ضروري في أنماط التعلم الدنيا"[33].

ومن جهة فإن استفادة المعنى التمام من كتب المتقدمين ليس سهلا دائما ويحتاج إلى تمرين يتم جمع كلام ابن مالك في الألفية وكلام الشارح ابن عقيل أو المكودي مثلا لعبارته، وكلام صاحب الحاشية كحاشية ابن حمدون الفاسي، أو الخُضَري على كلام الشارح، ومن الجميع يحصل المعنى، وقد تستعمل العامية للتفهيم ومراعاة مستوى الطلبة المبتدئين ونزولا عند واقع الضعف اللغوي عند بعضهم؛ بسبب شيوع الدارجة وهو أمر شائع رأيناه في الدروس الجامعية أيضا، والغرض الإفهام لا غير.

وقد لا يحضر الشيخ ذلك اليوم فيتصبح المطالعة التمهيدية متقدمة على حلقة الشيخ بحصص عديدة، وهو شيء جيد قد يؤدي إلى ختم مقررات كثيرة، وأذكر أن المرحوم الحاج عبد الكريمخلوفي من كبار تلامذة الشيخ والمقدمين عنده كان يطالع لنا في حاشية الدسوقي على مختصر خليل فأنهينا منه أجزاء عديدة وربما كاملا. فكان يعوض لنا بذلك المقادير التي شغل الشيخ محمد بلكبير عن إتمامها بسبب المرض الطارئ.

ومن ناحية تربوية فهذا الشكل من المطالعة مفيد لعموم الطلبة ويعوضون به الغياب عن حلقة الشيخ، ويتسنى لهم السؤال، ويستفيدون من أجوبة الطالب المقدّم، ويطلعون على الكتاب المقرر، ويتدربون بذلك على تفهيم غيرهم عند الحاجة. وبهذا تكون هذه المطالعة فرصة أولى للإلمام بمسائل وقواعد النصيب المقرر من المتن وشروحه في الحلقة العلمية المرتقبة. وواضح أن الطلبة يتفاوتون في الاستفادة من هذه الخطوة التمهيدية، وبعضهم قد لا يكون محتاجا إليها قبل جميع حلقات الشيخ المقررة، بل يتبعها في فن دون فن، ومقرر نحوي دون آخر...وهذا الذي ذكرته هنا وأذكره فيما بعد خاص بالطلبة الذين فرغوا من حفظ القرآن، وحفظ كثير من المتون الصغيرة بالمحاضر القرآنية. وتفرغوا للعلم صرفا.

02 – حلقة الشيخ العلمية: وهي خاصة بالشيخ وموجهة لجميع طلبة الطبقة العليا، والذين من المفترض أنهم تفرغوا للعلم من فقه ونحو... ومن المفترض أيضا أنهم شرعوا أو أتموا حفظ الألفية، زيادة على غيرها من متون النحو، واستفادوا من المطالعات التمهيدية، ومن معارفهم الخاصة إذا كانوا من خريجي المدارس النظامية. وعادة الشيخ محمد بلكبير رحمه الله أسوة بغيره من مشايخه أن يكلف طالبا بعرض " **الوقفة** "، وهي نصيب محدود معروف لدى الطلبة من متن الأجرومية أو الملحة أو الألفية. ويشترط في الطالب أمران: الحفظ التام للمتن لا يشك فيه؛ ليتيسر له عرض ذلك النصيب بحضور الشيخ ويتدرج فيه إلى نهايته، والأمر الثاني أن يكون مداوما للحضور بالمدرسة ولحلقة الشيخ قلما يتغيب. وأشير هنا إلى أن كامل الوقفات إنما يكلف بها طلبة الصحراء أدرار وما جاورها. وأما طلبة الشمال " التلّ"، فقد كان الغالب عليهم أخذ العطل الطويلة في أزمنة الحر بداية من جوان وإلى شهر أكتوبر.

وطريقة التدريس بعد الحمد والافتتاح " اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد صلاة تخرجنا بها من ظلمات الوهم وتكرمنا بها بنور الفهم، وتوضح بها عنا ما أشكل حتى يفهم. قال الشيخ رحمه الله تعالى ونفعني وإياكم ببراكت علمه آمين:"، أن يطلب الشيخ من المكلف بالوقفة عرض نصيبه من المتن في موضع قريب من بداية المتن ويستعمل عبارة "**أنعاااامْ**"، للابتداء، وعبارة " **إيـهْ**" لمواصلة العرض، ويشارك الطلبة الطالب المختار في عرض النصيب من حفظ الصدور جماعة. ويشرع الشيخ في الشرح المتوسط والتمثيل المعهود، لا يغير منه شيئا ولو أعاده مرات عديدة في سنوات متلاحقة. حتى أن بعض أذكياء الطلبة يحركون شفاههم متابعة للشيخ لكونهم يحفظون ما

سيقول من الشرح والأمثلة. والغريب أن الشيخ يعيد ذلك مئات المرات بلا زيادة ولا تغيير؛ لكون الحلقة تضم دائما طلبة جددا يحضرون شروح المتن لأول مرة.

وإذا كان فيه شواهد شعرية قرأها الشيخ ببحرها الشعري المعروف، وينتقل إلى موضوع ثان من المتن المذكور كان الأجرومية أو الألفية، وهو موضع متقدم لطالب آخر يكون قد شرع في المتن منذ فترة تطول أو تقصر. وهكذا يستفيد الطالب الثاني ومن يشاركونه الوقفة، من الموضع المتقدم التكرار لكونه معلوما لديهم، ويستفيد الطالب المبتدئ من الحلقة الثانية الاستعداد لها لكونه لم يصلها بعد.

ولما كان المتن شيئا منفصلا، ويقوم عليه الشرح، وعلى الشرح تكون الحاشية فإن المعنى يتوزع بين هذه الثلاثة، فيتطلب الأمر سبك الجميع وإقامة عبارة تامة من مجموع الثلاثة المذكورة، ليتم بها المعنى، ويتخلص من خصوصيات المتن أو الشرح أو الحاشية أو التقرير على الحاشية وقد تكون الأربعة المذكورة لأربعة مؤلفين مختلفين...

فإذا أنهى الشيخ شرح الموضعين بما هو مقرر من الشرح الوجيز أشبه بالتعليقات السطحية، نسبة إلى ما كان يعرف بالمدارس ومجالس العلماء من التحليل والنقد والتوجيه والتعليل، وما ذلك إلا رعاية للمستوى عموما، وإرشادا للطالب إلى المطالعة الموسعة. ثم يعيد الجميع عرض المقدار المحدد من المتن بقراءة جماعية خاتمة للحلقة. والعبارة الأخيرة للشارح أن يقول : " ولما أنهى الكلام عن كذا شرع في بيان غيره فقال:...".

03 – مطالعة التحقيق: وإنما سميتها ههنا مطالعة تحقيق، لأن كثيرا من الطلبة يعودون يوميا للتحلق لأجل مراجعة حلقات الشيخ، ويتحققون من مقادير الفهم الحاصلة، ومن فرص التفهيم المطلوبة. ولأجل هذا فكثيرا ما تكون متممة للجهد اليومي السابق إذ كانت غالبا في الليل بعد تناول العشاء، وهو وقت متأخر لكثرة طلبة المدرسة.

وتسمى " المذاكرة" لما تلقيه من مسائل النحو كما هو موضوعنا. ذلك أن الطلبة يتوسعون بواسطتها في الشرح الموجود بين أيديهم وهو هنا غالبا شرح الكفراوي على الأجرومية، وشرح ابن عقيل على الألفية، ويعودون إلى تقرير القواعد والشواهد، ويحرصون على حفظها واستظهارها عند الحاجة، والاستدلال بها على غيرها.

وبهذه الطريقة يشعرون بدرجة التحصيل المسجلة بين مطالعة الطالب وحده قبل المطالعة التمهيدية، ثم بين ما يشعر به من الفرق المعرفي بعد فرص التمهيد المتاحة، وما يتيسر له من حلقة الشيخ، ثم أخيرا ما يحصله بصفة موسعة نسبيا في مطالعة التحقيق. ثم هي من جهة أخرى تكون غالبا بين أقران، ولأجل ذلك يحتدم النقاش، ويتسع الحوار وربما خرج ذلك إلى بعض المسامرات، ومذاكرة مناقب الشيخ وذكريات الدراسة، وبعض الفوائد المتداولة.

وقديما قرروا أن " الْحِفْظُ لَا يَكُونُ إلا مَعَ شِدَّةِ الْعِنَايَةِ وَكَثْرَةِ الدَّرْسِ وَطُولِ الْمُذَاكَرَةِ، وَالْمُذَاكَرَةُ حَيَاةُ الْعِلْمِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ دَرْسٌ لَمْ يَكُنْ حفظ، وَإِذا لم يكن مُذَاكَرَةٌ قَلَّتْ مَنْفَعَةُ الدَّرْسِ، وَمَنْ عَوَّلَ عَلَى الْكِتَابِ وَأَخَلَّ بِالدَّرْسِ وَالْمُذَاكَرَةِ ضَاعَتْ ثَمَرَةُ سَعْيِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ."[34].

وأذكر أن مقامات الحريري كانت من مقررات استراحة الطالبة آخر الأسبوع لما تحويه من طرف أدبية، يحفظون نصوصا منها، ويستذكرونها عند الحاجة، ويحاولون تقليدها فيما يجد لهم من المواقف الطريفة. ثم هي من جهة أخرى فرصة لتطبيق المعارف النحوية المستفادة من خلال القراءة.

04 – التدرب على التدريس: وأختم هذا العنصر بالتعرض لظاهرة تطبيقية منتشرة في مدرسة الشيخ رحمه الله، وأعتقد أنها تقليد عريق، وذلك بقيام الطلبة بنفس المستوى أو مستويات متقاربة بالمذاكرة الجماعية، فيتداولون على شرح كتاب أو تقرير مسائل علمية محددة، وبانتشار الكتاب مع بداية التسعينات وتيسرها لرخص أسعارها خصوصا مطبوعات مكتبة الشهاب؛ فإن الطلبة كثيرا ما يمسك كل واحد بكتابه ويتابع قراءة وشرح شريكه، يصححون القراءة أولا، ويقفون على الأسلوب المستعمل، ويستوضحون عن التراكيب اللغوية المدونة.

وهذا فيما أعتقد أنه عمل يتم على مرأى ومسمع القائمين على المدرسة لما فيه من الفائدة العلمية والعملية، وسأعود لهذه النقطة للبيان أهميتها في اكتساب مهارة التفهيم والتعليم. وقد لا يكون هذا الشكل من المراجعة بتكليف من أحد.

رابعا – التقويم التربوي:

لا يخفى أن الطرق التعليمية جهد بشري محدود مهما كان راقيا في وسط وعصر معينين، يتأثر بالبيئة المصاحبة وبمستويات الثقافة واتساع العمران كما هي عبارة ابن خلدون، وليست بدايات الطرائق التعليمية المتبعة كحال تطورها أو ظروف استقرارها، فإن دخول العملية التعليمية جوّ

الروتين، والتكلس المعرفي يفقدها فاعليتها، ويجعل الأمر ليس أكثر من ركام معرفي يقوم أساسا على التلقين، ويستعصي على كل نقد، وبالتالي ينحسر دوره في ميادين الحياة، وقد ينتهي به الوضع إلى الاشتغال في محراب التجريد، وكلام المكتبات، وينفصل بذلك عن الواقع إلا بمقادير قليلة تغلب عليه الرسمية. ولأجل هذا يقوم داعي التقويم المرحلي لأجل إفراز الثابت من المتغير، وإعادة تصنيف المقادير القابلة للتوظيف، مراعاة لمتطلبات الواقع...

والمناهج كالأفكار كثيرا ما تشيخ في عقول أصحابها فيكون نقدها جريرة وعملا مدانا، ونحن نقف الوسط بين أنصار التمجيد والمبالغة وأنصار التجاوز والإلغاء، ونشير من واقع التجربة وبالتحليلات المستدل عليها على ما في تقاليد الدرس النحوي وأساسا بالمدرسة موضوع المقال. نحاول أن نحتفظ بالمفيد المتجدد لارتباطه بالواقع والظروف المستجدة... ونتخلص بعد التقويم العلمي من الإضافات الظرفية، والشكلية الطاغية.

01 – الاعتماد على الحفظ: الحفظ هنا ترسيخ المعلومة بكثرة تكرارها عشرات ومئات المرات، ومذاكرتها بعد ذلك باستمرار، حتى تصير مسجلة في الذاكرة، يمكن استحضارها وقت الطلب بصيغتها النهائية، وهي شكل من أشكال التوثيق. وهذا بحد ذاته لا يوصف بالسلبية من كل وجه، فقد يقوم داعي الحفظ على قلة الكتب أو عدم القراءة والكتابة كالحفظ بالنسبة للشخص الكفيف، وقد يكون ضرورة كحفظ النصوص الدينية للتعبد أو الاستشهاد بها...وإنما ينتقد الحفظ إذا كان بغير فهم، ومقصدا في حد ذاته في غير النصوص الدينية وأمور الرواية كالقصائد والخطب الأدبية...

وكذلك يكون الحفظ مطلوبا في زمن الصغر حيث يسهل الحفظ، ويتعسر الفهم بعامل صغر السن. وهذا واضح يستشف من الواقع وبرهان التجربة. وقد قيل قديما: الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر. ويبالغون بقولهم: والحفظ في الكبر كالكتابة على البحر، أي سريعة النسيان والذهاب. وقد ذكر ابن الجوزي ما يستفاد منه: أن " الناس يتفاوتون في ذلك؛ فمنهم من يثبت معه المحفوظ مع قلة التكرار، ومنهم من لا يحفظ إلا بعد التكرار الكثير، فينبغي للإنسان أن يعيد بعد الحفظ، ليثبت معه المحفوظ."[35].

والأكمل هو الحفظ عند الاقتضاء مع فهم المحفوظ، والحفظ يكون في المتون لتسهيل استظهارها عند الحاجة، ولما فيها من مسائل محسوم فيها ينبغي حفظها ومراعاتها بدون تغيير. فالقواعد

المذكورة في الألفية مفصول فيها غالبا وهي موضوعة للحفظ أولا ثم الفهم يأتي تاليا وأكيدا. وبعض كبار الطلبة يحفظون شروح المختصرات لكثرة تكرارهم لها في الدروس، ولئلا تتيه عنهم المعاني عند التعبير، وليلتزم المشايخ نمطا واحدا في الشرح...غالبا ما يراعى فيه مستويات المتلقي.

وأشير هنا إلى أن دروس الشيخ محمد بلكبير كانت من هذا النمط فقد كان ما يلقيه أمورا يحفظها للأسباب التي ذكرناها قبل أسطر، ولغيرها. حتى أن أذكياء الطلبة يتمتمون بما يقوله الشيخ يحفظونه لكثرة ما سمعوه، ويعدونه عند الحاجة إليه إذا ما تولوا بدورهم التدريس والتعليم.

والطلبة بالمدرسة الذين لم يتموا حفظ القرآن يجعلون آخر اللوحة مقادير من الأجرومية، ومن الملحة، وبعضهم يستعجل حفظ الألفية فيكتب من كل ذلك سطرين أو ثلاثة، بيتين أو ثلاثة ويعرضها على الشيخ بعد عرض النصيب المحدد من القرآن. ومن المقرر أن الأربعاء من كل أسبوع يتم فيها عرض جميع المحفوظات قراءة جماعية بالمحضرة حيث يشرف عليها أحد كبار الطلبة.

ولا شك أن للحفظ دورا كبيرا في تثبيت المعارف، خصوصا في الأزمنة الأولى حيث لم يكن يتيسر الكتاب والورق للكتابة في كل مكان، حتى قال بعضهم مبينا مكانة حفظ الصدور[36]:

أَمَا لَوْ أَعِي كُـــلَّ مَا أَسْمَعُ ○○○ وَأَحْفَظُ مِنْ ذَاكَ مَا أَجْمَعُ

وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَدْ سَمِعْتُ ○○○ لَقِيلَ هُوَ الْعَـالِمُ الْمِصْقَعُ.

وروي عن عبد الله بن المبارك (ت 181هـ): " أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر"[37]. وفي نصوص عديدة يمتاز الحفظ بمكانته المعرفية، كأرضية صلبة لجميع ما يأتي بعده. لكن الاقتصار عليه قد كان محط نقد شديد من السلف أنفسهم، إلى الدرجة التي شبهوا فيها من ينتحي ذلك بالبعير لا يدري ما يحمل. كما في الأبيات التالية[38]، وهي مقتبسة من القرآن في قوله (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[الجمعة: 5].

زوامل للأشعار لَا علم عِنْدهم ○○○ بجيدها إِلَّا كعلم الأباعـــــر

لعمرك مَا يدْرِي الْبَعِير إِذا غَدا ○○○ بأجماله أَو رَاح مَا فِي الغرائر.

أ– **حفظ المتون** النحوية: المتن هو النص الخاص بابن آجروم مثلا بدون شرح ولا حاشية، وكذلك متن الملحة وهي نظم الحريري، ونفس الكلام يقال عن الألفية، وهي التي يهتم الطلبة بحفظها أسوة بشيوخهم، والسابقين من الطلبة. وتختلف طريقة الحفظ بين من يجعل السطر والسطرين آخر

لوحة القرآن إلى أن يتم المتن، وبين من يؤخر ذلك إلى أن يختم القرآن ثم يشتغل بالمتون خصوصا الألفية فيجعل مقادير كبيرة من المتن في اللوحة ويعيدها مستعملا السبحة، مئات المرات، ويراجع ما مضى حتى لا يتفلت منه، ويراجع طلبة الشيخ المتون المحفوظة جماعة، يسردون العبارات بلا توقف إلى آخر المتن. بينما يقرأون النظم جماعة على بحر الرجز وهو ست تفعيلات:

مستفعلن مستفعلن مستفعلن ○○○ مستفعلن مستفعلن مستفعلن.

ومن يحفظ جيدا هو المؤهل أكثر أن يقترب من الشيخ في مجلسه زيادة على اعتبارات أخرى كقدم التلميذ في الحلقة، أو غياب غيره وشغور مكانه. وذلك أن الشيخ ربما احتاج أو يفعل ذلك من باب التمرين فيطلب بعض النصوص المحفوظة من الأجرومية يشرح بها الألفية أو العكس فيجد ذلك حاضرا عن الحفظة من الطلاب لا غير.

ولا يكون الحفظ نافعا ما دام ليس جيدا، لذلك فإن من طلبة الشيخ من يقلل مقادير الحفظ، يمرُّ بذلك على المتن مرة واحدة، بحفظ متثبت، وتكرار مستمر، ومنهم من يمرّ مرا خفيفا على المتن، ثم يعود إليه بالحفظ ليجده أسهل من المرة الأولى.

أما بخصوص التكرار فيكون باستمرار وإلا ذهب المحفوظ أو كاد ومن ناحية تربوية، فإن " التكرار من العوامل المساعدة على التعلم الجيد، وذلك لأنه يكسب " الأداء نوعًا من الثبوت والنمو والاستقرار عند الشخص المتعلم، فالممارسة تيسر نوعًا من الآلية، وبالتالي تساعد على أداء الأعمال بطريقة سريعة دقيقة صحيحة."[39].

ب– حفظ الشواهد النحوية: ومما يحفظ أيضا وهو كثير شواهد الشروح وأمثلة المتون العلمية في الأبواب النحوية المختلفة، وذلك أن تطبيقات الشراح تتضمن شواهد من الشعر العربي تقرر القاعدة النحوية أو تورد عليها الإستثناء، فيقرأ الشيخ الشاهد على بحره الشعري ويتابعه الطلبة في ذلك، وربما شرحه شرحا خفيفا مع بيان محل الشاهد. وكذلك الأمثلة التطبيقية للقاعدة الإعرابية وغالب ذلك مما يورده الشراح، وهو مسجل في الكتب لا يخرج عنه الشيخ بحال. وربما حاول الطلبة فيما بينهم أن يوردوا أمثلة بسيطة، وجديدة يتيسر بها الحفظ فينجحون بدرجات متفاوتة، وأما الثقة فتكون في شواهد الشراح وأمثلته لا غير.

ويتدول الطلبة فيما بينهم الشواهد فيستعملونها على سبيل المذاكرة في التنكيت، والاسترواح بنغمات بحورها الشعرية الستة عشر. وأشير هنا إلى أن أكثر الطلبة يحفظون نغمات البحور العربية

المذكورة، فيكون بإمكانهم تقطيع البحر بالألحان المعروفة، والنغمات بغير حاجة شديدة إلى التقطيع المعروف برموزه في كتب العروض.

ج– حفظ الفوائد والألغاز النحوية: ووما يتداوله الطلبة بالحفظ والتمرين، والمفاكهة أيام العطل والاستراحة كثير من الفوائد النحوية والصرفية وغيرها، ونصوص مقامات الحريري، ومقاطع مطولة من المعلقات... وأمثل على سبيل المثال لا الحصر بما يلي:

يا قارئا ألفية الجيَّـــــــاني ○○○ وسالكا في أسهل المعاني

في أي بيت جاء فعلٌ فاعلا ○○○ والمبتدا من بعده مفعولا

وقد ورد جوابه نظما أيضا والإشارة إلى قول الألفية:

ترفع **كانَ المبتدا** اسمًا والخبرْ ○○○ تنصبه ككان سيدا عُمَرْ.

وذلك أنّ " كان " الفعل في بيت الألفية جاءت في موضع فاعل ترفع فلا بد لها من مفعول، وقد نصبت لفظ " المبتدا "، فصار مفعولا.

وكذلك اللغز التالي فكتابته هكذا " رأيت شيخا وَجَى رِيّةً في جوف عصفور، وتلقى سماعا هكذا: " رأيت شيخا وجارية في جوف عصفور"، فيعتقد السامع أنه مستحيل لضيق قلب العصفور. والخدعة في الإلقاء، وأما المعنى أن الشيخ " **وجى** " مضارعه يَجي بمعنى قطعَ يقطع، " **رية** " أي رئة عصفور، وهو ممكن.

وما يتواصى الطلبة بحفظه، وهو لأجل الحفظ والمذاكرة ما ورد عن السلف غير محدد في مصدر خاص، بل متداول كثيرا: " حفظ سطرين خير من حمل وِقرين، ومذاكرة اثنين خير من هذين."، فالمذاكرة حياة العلم من جهة بقاء نصوصه، وفهم حدوده. وفي الاهتمام بالتبكير وتقديم بعض العلم على بعض آخر:

وقدِّم الأهمَّ إن العلم جمٌّ ○○○ فالعمر ضيفٌ أمَّ أو طيفٌ ألم.

وفي البكور بركـــات جمة ○○○ يهبها الله لهـــاذي الأمة.

وأختم بهذه الفائدة الواردة تحث الطلب على حفظ المروءة، وربما وردة أبيات: " لحمْلُ بئر بإبرتين، وكنْس مصر بريشتَين، وغسلُ عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، ونقل جبلين راسيين...ونقل بحرين زاخرين إلى صعيد بمنْخلين، أهون من وقوفي حيث يضيع عرضي وديني.

02 – قياس القدرة على الفهم: تقدم أن الحفظ ليس مقصودا لذاته في تقاليد الدرس النحوي بمدرسة الشيخ محمد بلكبير ولا بغيرها، وإنما هو وسيلة للاستحضار السريع للقواعد وأحكام المسائل، وأن الحفظ يقوم مقام التوثيق في الأزمنة التي لا يتيسر فيها الكتاب، وبيئة المغرب العربي عموما مثال لذلك فمهنة نسخ الكتب وتجارة الكتاب فرع قيام العمران واستقراره، وإلى عهد قريب لم يكن المصحف موجودا عند غير بعض المشايخ فما بالك بغيره من بقية الكتب.

والمقصود أن الفهم ضروري خصوصا لما اتصل بالمتن من جهة دلالة ألفاظه على القواعد المقررة والمسائل المحررة، وما بالشروح من الأمثلة والشواهد. ولأجل ذلك يحرص طلبة الشيخ كما مهدنا ومنذ سنين عديدة على إقامة حلقات المذاكرة لنصوص الألفية وشروحها، وحواشيها خصوصا شرح ابن عقيل، وقبله شرح المكودي. وهذا الأخير هو الذي كان سائدا بالمغرب، لتيسره ولكونه صناعة مغربية، عكس شرح ابن عقيل على الألفية فهو بضاعة جديدة مشرقية إنما تعود وفرته إلى انتشار الطباعة الحديثة.

وقصد الفهم وجانب الدراية كان معهودا في الدرس النحوي بالمغرب الأوسط مشهودا به لأعلام منه، نتيجة قيام العلماء على الألفية وكتب الأمهات قبلها بالتحصيل والتدريس وخذ مثلا ما ورد في ترجمة عبد الواحد الونشريسي من أنّ "من رآه في درس النحو، وإجادة العبارة والتمكن من القواعد يقول: لو كان سيبويه حيا لتتلمذ عليه."[40].. وهي شهادة من معاصرين تعكس مستوى الدرس لا التأليف. ثم انحسر ذلك بتطاول الزمان وضغط البيئات الطارئة والمتجددة، وهو ما أنتجته من ضعف الحاسة المعرفية، وغياب عنصر الإبداع، والاقتصار على أقل القليل من كلام ومباحث المتقدمين، وفقد التوجيه لاختلاف المدارس النحوية المأثورة. وقد أشار إلى ذلك أبو القاسم سعد الله : " كان شيوخ هذه المؤسسات يستعملون النصوص والشروح القديمة وقلما يخرجون عنها إلى غيرها، وهي لا تكاد تخرج عن شرح قطر الندى، وشرح ابن عقيل على الألفية، وكذلك شرح الآجرومية للشريف ابن يعلى."[41].

وقد حضر بعض المفتشين الفرنسيين " **Alfred.Bel**" ما انتهى إليه تدريس النحو بالمقررات المذكورة وسجل ما نقل بعضه أبو القاسم سعد الله فنحن نحيل عليه: " وانتقد طريقة تدريس مختصر الشيخ خليل القائمة على الحفظ دون الفهم كما يحفظ القرآن، واعتبر مختصر خليل نصا غامضا، وأن المعلم نفسه لا يفهمه حتى بعد الرجوع إلى شراحه، وهو يقرأه مكسورا وملحونا؛ لأن

تعليمه في النحو لم يؤهله إلى فهم النصوص وإنما حفظ القواعد فقط. وحكم بيل بأن الدراسات النحوية تسقط تدريجيا في الجزائر لأن معرفة النحو أصبحت معرفة ضحلة. فأنت يمكن أن تكون أستاذا كبيرا، ولا تعرف تطبيق النحو. وذكر أن هناك فقهاء مشاهير وهم يلحنون عندما يقرأون نصا فقهيا... وقال إن دراسة النحو لا تخرج عن شرح متون الآجرومية والألفية. وعلى التلميذ أن يحفظ هذه المتون عن ظهر قلب، واعتبر بيل الأستاذ مسؤولا عن ذلك لأنه لا يمرنه ولا يطبق له الدرس."[42].

ونحن نتعقب هذا هذا النص بالمبالغة في نفي الفهم عن جملة مدرسي الفقه خصوصا مختصر خليل فليس كل أبوابه غامضة، إذ كان الاهتمام بباب العبادات عملا دراجا وواضحا، ويوجد ما يسهله من غيره المعارف المستفادة من الرسالة الفقهية ومتن ابن عاشر وغيره، ثم هذا ليس عاما في الوطن، ولا عند جميع المشايخ. وإن كنا نوافق على أن درجة الفهم لم تكن بالشكل الذي يناسب مستويات التدريس المطلوبة.

وقد عايشت الطلبة خصوصا الطبقة العليا منهم يجيدون فهم الفقه من مختصر خليل وغيره، ويحيطون بعبارات المتن والشرح تمام كما يفهمون الألفية وغيرها بشواهدها. ويقلّ ذلك عند غيرهم بدرجات، وهو واضح. وأما بخصوص النحو فإنما كان يغيب عنصر التطبيق الواسع المتناسب مع المعارف النظرية المحصلة.

03 – قياس القدرة على التفهيم: أشرت سابقا إلى وجود حلقات تمهيدية وأن كثيرا من الطلبة يتنقلون بين أدوار التحصيل من حلقات الشيخ، وكبار طلبته إلى التدريس والتفهيم لبعضهم بعض أو لصغار الطلبة، وهو تقليد شائع ومتاح، ويمثل دروسا تطبيقية في النحو في الأجرومية والملحة أكثر مما هو في الألفية لابن مالك. والملاحظ أن التفهيم يتم بدرجات مختلفة تبعا لذلك، وربما استعملت العامية لتحصيل المقصود.

خامسا – خاتمة:

أخلص من عرض ما في هذا المقال إلى أمور من أهمها:

– وجود تقاليد راسخة في الدرس النحوي امتدت إلى عهد قريب بالجزائر.

– حافظت مدرسة الشيخ محمد بلكبير على الموروث المعرفي للنحو العربي من مصادره المعتمدة.

– وجود طرائق تربوية ناجعة، وذات مردود طيب.

- صلاحية الطرائق التقليدية للتحديث، مع المحافظة على أصولها المعرفية.
- أثر الحفظ كعامل أساس في التحصيل العلمي، مع التركيز على أهمية الدراية.
- وجود إنتاج علمي متنوع قائم على المقررات المعتمدة بالمدارس والمعاهد.
- ضيق ميادين التطبيق حد كثيرا من توظيف الجانب المعرفي لصالح اللغة العربية.

هوامش:

[1] – ورد في كتاب الضوء المستنير في معرفة الشيخ سيدي محمد بن الكبير، وأيضا بلَكْبير.

[2] – الضوء المستنير في معرفة الشيخ سيدي محمد بن الكبير، مولاي التهامي الغيثاوي تلميذ الشيخ (المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، ط1، 2002م) / 38.

[3] – معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض. / 61.

[4] – بغية الوعاة، جلال الدين السيوطي. 513/1.

[5] – فوات الوفيات، لشاكر الكتبي. 406/3.

[6] – شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف / 273، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق. / 135.

[7] – الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني. 308/2.

[8] – تعريف الخلف برجال السلف، 112/1.

[9] – تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمان ابن خلدون. ج 1/ 733.

[10] – السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. 72/3.

[11] – تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله. 87/1.

[12] – سعد الله، المرجع نفسه. 284/1 – 298.

[13] – سعد الله، المرجع السابق. 488/1.

[14] – سعد الله، المرجع السابق. 2/ 379. .

[15] – السيوطي، بغية الوعاة 102، 103، معجم المؤلفين، رضا كحالة. 11/ 215.

[16] – المقدمة الأجرومية /01.

[17] – تاريخ الجزائر الثقافي، سعد الله. 1/ 88).

[18] – تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي. 2/ 391 – 393.

[19] – تاريخ الجزائر الثقافي، سعد الله. 2/ 162.

[20] – تعريف الخلف برجال السلف، لأبي القاسم الحفناوي. 533/2.

[21] – تاريخ الجزائر الثقافي، سعد الله. 1/ 87.

[22] – معجم المؤلفين، رضا كحالة. 8/ 108.

[23] – أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف. 212/2 .

[24] – الأعلام، خير الدين الزركلي 233/6.

[25] – معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق. 290.

[26] – تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق. 1/ 87.

[27] – البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني. 238/2]

[28] – تاريخ الجزائر الثقافي، سعد الله.2/ 165..

[29] – تاريخ الجزائر الثقافي، سعد الله. 2/ 162.

[30] – معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق. / 307.

[31] – تاريخ الجزائر الثقافي، سعد الله. 8/ 44.

[32] – معجم أعلام الجزائر، معجم أعلام الجزائر. / 15.

[33] – أحمد زكي، علم النفس التربوي. / 508.

[34] – على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، أبو هلال العسكري (المكتب الإسلامي، بيروت 1986م) ص: 67.

[35] – الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، لأبي الفرج بن الجوزي. / 21 .

[36] – الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، المصدر السابق. / 68.

[37] – من هدي السلف في طلب العلم، لمحمد بن ماطر الزهراني. / 23.

[38] – الحث على طلب العلم، المصدر السابق. ص: 23.

[39] – أحمد، زكي، علم النفس التربوي. المرجع السابق. / 459.

[40] – تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق. 1/ 125.

[41] – تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق. 8/ 42.

[42] – تاريخ الجزائر الثقافي 3/ 177، نقلا عن ألفرد بيل.